فكاهات

رواية

تحت ظل الراية [1]

كان لاحد اشراف الانكليز ولدٌ وحيد رزقهُ الله اياهُ واعطاهُ معهُ غنىً وافراً وثروةً واسعة فكان ينظر الاب الى ابنهِ نظرة انسانٍ الى سبب سعادتهِ وعنوان افتخارهِ . ولما ترعرع الفتى وكان اسمهُ سسل ارسلهُ والدهُ الى المدرسة ليتلقى فيها العلوم فنبغ بين اقرانهِ وكان ميالاً الى قرآءة الروايات فكان يطالعها كلما سمح لهُ الوقت مطالعة المنتقد البصير ويشبع افكارهُ من وقائعها وتواريخها ولغتها . وكان يرى في اكثر الروايات التي طالعها من الاخبار عن اعمال ربات الخدور وما يُلبسهنَّ الراوون من ضروب الخيانة والغدر ما جعلهُ ينفر من ذكر الزواج ويتحذر من الوقوع في اشراك النسآء . غير انهُ ما عتَّم ان تلطف معهُ هذا النفور لانهُ رأى ان لا بد للانسان من شريكةٍ تشاطرهُ الحياة ولكنهُ يجب عليهِ ان ينعم النظر في انتقآئها ويجتهد في تربيتها على ما يريدهُ من حسن السيرة وطهارة السريرة . ولما انتهت ايام سسل المدرسية عاد الى بيت ابيهِ مكللاً بغار النجاح فتلقاهُ والدهُ بمنتهى الحفاوة والسرور وأدب مأدبةً حافلة دعا اليها كثيرين من

---

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

اصدقائهِ اكراماً لرجوع ولدهِ فائزاً وكان سسل يسير بين الضيوف بوجهٍ باش ولسان طلق فيكرم الشيوخ ويلاطف السيدات ويحادث الفتيات وهو يرشقهنَّ من تحت كلماتهِ بسهام النظر ليرى ما انطوينَ عليهِ وفي صدرهِ آمال . فأُخذ الجميع بحذقهِ وجمالهِ وعذوبة حديثهِ ولم يبقَ بين الحضور من لم يمل بكليتهِ الى سسل ويفتتن بحسن آدابهِ

وعلم والد سسل ان ابنهُ ميال الى اختيار زوجةٍ وكان هذا ما يتمناهُ فجعل يكثر من المآدب والاجتماعات في بيتهِ الى ان وقع اختيار سسل على فتاةٍ تدعى جوليا دي منتاغ من اسرةٍ عريقةٍ في النسب والغنى وكانت هذه الفتاة في التاسعة عشرة من عمرها جميلة المنظر حسنة الاخلاق كاملة الصفات . فلما اظهر سسل ميلهُ اليها كان ذلك من اكبر دواعي السرور عند والدهِ ولم يكن ما يعوق سسل عن اتمام رغائبهِ فلم يمضِ الوقت الكثير حتى اقترن بجوليا وعقب اقترانهُ بها شهران او اكثر من الاعياد المتواصلة واقامة حفلات السرور والابتهاج

وبعد ان مضى على ذلك مدةٌ اخرى دعا سسلَ والدهُ وقال لهُ يا ولدي قد ازف الوقت الذي فيهِ يجب عليك ان تريح والدك الشيخ وتكفيهُ عنآء الاهتمام باشغالهِ واملاكهِ فاريد ان تصحبني من الغد الى محل الشغل لتطّلع على كلياتهِ وجزئياتهِ حتى متى شآء الله ان ينقلني من هذه الحياة تكون على تمام الأهبة للقيام بما يترك على عاتقك من الاعمال . ورأى سسل كلام والدهِ صواباً فاجابهُ الى ما اراد وفي اليوم التالي تبع والدهُ الى محل شغلهِ فقضى معهُ ساعتين ثم رجع الى بيتهِ عند الظهر وكانت جوليا

تنتظرهُ في الحديقة فضمها الى صدرهِ ثم دخل بها المنزل ودامت الحال على ذلك نحو سنتين من الزمان . وفي ذات يومٍ عاد سسل من محل شغله وبلغ باب الحديقة فلم يرَ زوجتهُ كالعادة فقلق ودخل حيران ولما بلغ القصر توجه توًّا الى غرفتها ولما بلغ الباب رأى زوجتهُ جالسة على مقعدٍ في غرفتها والى جانبها فتىً قد طوّق خصرها بذراعهِ والقت رأسها على صدرهِ وهو يقبّلها قبلات الوله والهيام . ولو نزلت صاعقةٌ على رأس سسل لما اثرت فيهِ كذلك المنظر فعاد الى غرفتهِ من غير ان يشعرا بهِ وقد اسودت الدنيا في عينيهِ واعترتهُ نوبةٌ عصبية فاصبح كالمجنون وجعل يلطم رأسهُ بجدران الغرفة وينتف شعرهُ الى ان سقط على الارض متلاشي القوى . ولما افاق جلس هنيهةً يفكر فيما عساهُ ان يفعل ورأى ان شرفهُ قد اهين وان لا سبيل الى محو ما لحقهُ من العار الا بالانتحار وللحال ظهر على وجههِ تبسمٌ ابليسيّ فاسرع الى غدارتهِ وبعد ان صوبها الى رأسهِ رمى بها الى الارض وقال كلاّ ما انا بجبانٍ ولا ينتحر الا الجبان والدنيا واسعة فالوداع يا وطني الوداع يا انكلترا قد مات عنكِ سسل ودُرست آثارهُ اما انا فسأحيا ما بقي لي من الحياة تحت غير هذه السمآء لارى ما خبأهُ لي الدهر بعد هذا من المصائب المرّة . ولما قال ذلك قرع جرس غرفتهِ فاتى الخادم فقال لهُ انني ذاهب في بعض اشغال عظيمة الاهمية جدًّا وربما لا ارجع هذا المسآء واذ كان لا يمكنني التأخر دقيقةً واحدة لم اتمكن من مقابلة مولاتك فأبلغها ذلك بعد ذهابي حين تأتي الى غرفة الطعام . ثم انهُ دسّ في جيبهِ بعض النقود والقراطيس المالية وخرج . ورأى الخادم في وجه مولاهُ ما لم يرهُ

قبلاً فدهش وجعل يفكر فيما عساهُ ان يكون هذا الامر الشديد الاهمية

وانتبهت جوليا بعد حين انهُ قد مضى موعد رجوع زوجها فخرجت الى الحديقة وانتظرت حيناً فلم ترَ احداً ثم عادت الى القصر وسألت الخدم هل رجع سسل فاخبرها الخادم بما اوصاهُ مولاهُ فاغتمَّت جدًّا وقالت وهل من الممكن ان اشغالهُ مهما كانت مهمة تمنعهُ من التكرم عليَّ بنظرةٍ واحدة قبل خروجهِ فلا بد ان يكون في الامر سرٌّ لم ادركهُ ثم تساقطت عبراتها فعادت الى غرفتها وجلست تبكي ولم تذق القوت الى المسآء . وكانت كلما هب النسيم فحرّك الاغصان تثب الى باب الغرفة ظانةً ان سسل قد عاد وحين لا تجدهُ تعود الى البكآء وقضت ليلتها على مثل تلك الحالة الى مسآء اليوم الثاني . ولما لم يرجع سسل تحققت ان في الامر داهيةً ومصيبة عظيمة فذهبت الى حميها واخبرتهُ بالواقع فتحير الآخر وقضيا اياماً في البحث عن سسل فلم يوقف لهُ على اثر . ولما اعيتهما الحيلة سلما الامر الى الله ولبثا ينتظران من يومٍ الى آخر سماع شيءٍ عنهُ

اما سسل فخرج من قصرهِ وهو لا يدري اين يذهب ورأى امامهُ قطاراً فركبهُ واوصلهُ الى الميناء وصادف هناك سفينةً مسافرة الى كاله فركبها وما لبثت الا قليلاً حتى اخذت تمخر عباب البحر فوقف سسل على ظهرها وهي تبتعد بهِ عن شواطئ انكلترا واخذ ينظر الى مسقط رأسهِ وفي صدرهِ غليان المرجل . ولما بلغ كاله خرج الى البرّ وركب القطار فنقلهُ الى باريس ومنها الى مرسيليا . وقطع سسل كل هذه المسافات وهو غير عالم بوجهتهِ ولا يدري ماذا يفعل ولم يذق قوتاً ولا اخذهُ كرًى . فلما بلغ

مرسيليا نزل من القطار ورأى امامهُ مطعماً فدخل وطلب بعض القوت فاكل ثم ادركهُ النعاس فالقى رأسهُ على المائدة ونام نوماً ثقيلاً . وكان الزائرون يدخلون ويخرجون وهو لا يشعر بهم ورأى صاحب المطعم ذلك فعلم ان الرجل مجهودٌ من التعب فلم يقلق راحتهُ وبقي سسل نائماً الى نصف الليل واذ ذاك افاق بغتةً على صوت زمرةٍ بالقرب منهُ يشربون ويطربون فاعار اذناً صاغية فعلم انهم من الجنود الذين صدرت لهم الاوامر بالسفر الى بلاد الجزائر حيث دارت رحى الحرب . وكأن قوةً جديدة شعر بها في صدرهِ فانتصب واقترب اليهم فحياهم باللغة الفرنسوية فاجابوهُ وجلس اليهم يسألهم عن الحرب وعلم انهم سيسافرون في الغد الى الجزائر فاظهر ميلهُ الى التطوع معهم ثم امر لهم بشراب ورأوا من كرمهِ ما حببهُ اليهم فوعدوهُ ان يسهلوا لهُ الامر لدى قائدهم . ولما كان الغد توجه سسل الى قائد الفرقة وعرض عليهِ التطوع تحت رايتهِ فتعجب ذلك من انكليزي يود الانتظام في سلك الجنود الفرنسوية ولكن الحاح سسل ورفقائهِ اقنع القائد فقبل طلبهُ وعينهُ من جملتهم . وفي منتصف النهار اقلعت الباخرة من مرسيليا باولئك الجنود وكلهم يتشوق الى الوصول الى ساحة الوغى واكثرهم شوقاً سسل . وكان يجتهد في نسيان ماضي حياتهِ ما امكن ولكن لم تبرح من وجههِ امائر الغمّ والاكتئاب . وكان لا يحب ان يطلع احداً على اسمهِ فكانوا يلقبونهُ بالانكليزي ويقولون لا لذة لنا الا بوجود الانكليزي فهو آية السرور ولكنهُ يجتهد في اخفاء سرٍّ عميق نظنهُ الباعث على طردهِ من وطنهِ ومجيئهِ الى هنا

ولما بلغت هذه الفرقة بلاد الجزائر انضمت الى الجيش الاكبر واُخبر القائد العام ان بصحبتهم فتىً انكليزياً قد تطوع في الجيش فاستدعاهُ القائد وكلمهُ فرأى فيهِ نخوةً وعظمةً ونفساً ابية فاضمر لهُ الاهانة والاحتقار

اما سسل فاحسن القيام بما عُهد اليهِ وحافظ على واجبات الجندية فلم يدع عليهِ لاحدٍ سبيلاً وزاد في حسن صفاتهِ سكوتهُ المستمرّ فكان رؤساؤهُ ورصفاؤهُ يحبونهُ جدًّا ما عدا القائد كما ذكرنا . اما في الوقائع فاظهر سسل شجاعةً نادرة وكان يرمي بنفسهِ في اشد مواقع القتال خطراً وهو يتمنى التخلص من هذه الحياة وبقيت الحالة على ذلك مدة ثماني سنوات . وكان في جيش الفرنسويين فتاةٌ يقال لها سيجرت ادَّعت انهُ اُوحي اليها مساعدة الجيش فرافقتهُ الى الجزائر وكانت لا تكل من الخدمة فتارةً تراها في المستشفى تعالج الجرحى وتسير بين المرضى كملاكٍ طاهر وطوراً تراها ممتطيةً صهوة الجواد تحرض الفرسان على الهجوم وهي في مقدمتهم لا يخيفها العدوّ ولا ترهب الموت . وكانت سيجرت قد احبت سسل لما رأت فيهِ من كرم الاخلاق والاقدام في ساحة الوغى غير انها كانت تنفر منهُ لانهُ انكليزي فلم تكن تكلمهُ البتة . وفي ذات ليلةٍ كان سسل يسير بجوادهِ للحراسة خارج المعسكر وكان متشتت الافكار فما شعر الا وقد ابتعد عن الخيام واوغل في القفر وما انتبه لنفسهِ وهمَّ بالرجوع حتى سمع صوت جلبة وصياح فهمز جوادهُ وفي اقل من لحظةٍ بلغ المكان فرأى سيجرت والى جانبها فارس ليس من الجنود وقد اطبق عليهما ستة من فرسان العدو فحمل سسل عليهم حملة الاسد فمزق شملهم وقتل اثنين منهم ثم اتبعهما

بثالث فهرب الباقون

ولما انتهت المعركة تقدمت سيجرت تشكر سسل على انقاذها ثم تقدم رفيقها ايضاً فلما تفرس فيهِ سسل اذا هو نفس الفتى الذي كان عند زوجتهِ في ذلك اليوم المشؤوم وكأن قوةً كهربآئية حركتهُ فهمز جوادهُ وسار كالبرق الخاطف راجعاً الى المعسكر تاركاً سيجرت ورفيقها في حيرة من هذا الفعل . ولما بلغ محل حراستهِ ترجل عن جوادهِ وجلس على صخرةٍ وكلهُ افكار وتخيلات وبعد ذلك قدمت سيجرت وحدها وكان حبها لسسل يتزايد ولا سيما بعد هذه الحادثة الاخيرة فلما رأتهُ ترجلت وتقدمت اليهِ قائلةً انني اكرر شكري لهمتك ايها الانكليزي لانقاذك اياي من الموت وعسى ان اتمكن يوماً من وفآء هذا الجميل . قال سسل وكانهُ لم يسمع شيئاً من حديثها بالله ايتها الفتاة من هو الرجل الذي كان برفقتكِ الآن . قالت هو رجلٌ انكليزي نظيرك ومن الأُسَر الغنية جدًّا قدم مع شقيقةٍ لهُ للسياحة ورآني في هذا المسآء خارجة كعادتي لمشارفة العدوّ فكلمني وجعل يسألني عن الجنود وسألني هل تطوع احدٌ من الانكليز في هذه الحرب فاخبرتهُ انهُ لم يأتنا من هذه الامة الا واحد . ثم افضنا في الحديث فلم نشعر الا وقد ابتعدنا عن طريقنا واصبحنا بين اولئك الاعدآء فالشكر لهمتك على انقاذنا منهم . وكان سسل يعجب من قدوم رجل انكليزي وشقيقته بقصد السياحة في تلك النواحي وفي مثل تلك الايام ثم من سؤالها عمن عساهُ ان يكون قد تطوع من الانكليز واراد ان يبعد هذه الافكار عنهُ غير انهُ رأى فيها غرابةً وموضعاً للتفكر . واستفهم من سيجرت عن

محل وجود هذا الرجل فاخبرتهُ عن المحل كما علمتـهُ من الرجل نفسهِ

فلما كان الغد انتهز سسل فرصة راحتهِ من نوبة الحراسة فركب وتوجه الى المحل حسبما افادتهُ سيجرت فرأى سرادقاً فخيماً وحولهُ الخدم والحشم فتقدم الى احدهم وبعد ان سلم عليهِ ولاطفهُ سألهُ عن اولئك السياح فقال الخادم اننا في حاشية الكنت فيليب دي منتاغ وشقيقتهِ الكنتة جوليـا . فلما سمع سسل اسم منتاغ وجوليا شعر ان الارض تموج بهِ ولكنهُ ثبَّت جنانهُ وقال للخادم واين هما الآن . قال قد خرجا للنزهة ولا يعودان قبل منتصف الليل . فقال سسل للخادم انني اعرف اناساً بهـذا الاسم ولكنني لست متحققاً هل الكنت وشقيقتهُ هما اللذان اعرفهمـا فهل لك ان تساعدني على طريقة اتمكن بها من رؤيتهما بدون ان يراني احد ولك مني ما تحبّ . ولما قال هذا اخرج من جيبهِ بعض النقود ودفعهـا الى الخادم فتبسم الخادم وقال ان ذلك من اسهل الامور فان غرفتي بلصق غرفة الكنتة وانا خادم غرفتها فتعالَ معي . فربط سسل جوادهُ الى ناحيةٍ ودخل مع الخادم وكان في اثنآء انتظارهِ على احرّ من الجمر . واذ قارب انتصاف الليل اخبرهُ الخادم ان مولاتهُ قد جآءت وكان في جدار الغرفة خرق صغير فوضع سسل عينهُ ونظر فرأى زوجتهُ بعينهـا وهي مرتديةٌ ثياباً سوداَ وعلى وجهها اثر الحزن وقد استندت على ذراع الفتى الذي ذكرناهُ سابقاً . اما سسل فقطع تنفسهُ وشخص ببصرهِ واصغى بكل قوى نفسهِ فسمع الشاب يقول والى متى هذا الحزن يا شقيقتي فانهُ ان كان زوجكِ لا يزال حيًّا فلا بد من ان نصادفهُ وان كان ميتاً فالحزن لا يرجعهُ

فسكّني روعكِ . فقالت جوليا بصوت الحزين الاسيف هذه هي السنة الثامنة وانا انشدهُ في جميع انحآء الارض فلم اقف لهُ على اثر افلا يحق لي ان احزن وانوح . قال الفتى ولكنني اخبرتكِ بما حدث ليل امس وما ادرانا ان لا يكون هذا الفتى الذي خلصني من الموت هو نفس زوجكِ سسل وسأجتهد غداً في البحث عنهُ وفي ظني اننا هذه المرة قد ظفرنا بضالتنا . وعلم سسل ان الفتى الذي كان قد رآهُ مع امرأته حين هجرها هو اخوها فندم على ما فعل وايقن انهُ كان مخطئاً في حقها فهمّ ان يدخل عليهما ويستغفرها عما جنى عليها ثم قال في نفسهِ ولكن بايّ وجهٍ اقابلها وبماذا اعتذر اليها عن تهوُّري وتسرعي في ظني وتركي لها كل هذه المدة في العذاب . لا لا ان سسل قد مات وما انا الآن الا جنديٌّ يحارب تحت الراية الفرنسوية في شمالي غربي افريقيا ليس الا . وللحال نهض فركب جوادهُ وعاد من حيث اتى وكان يسير على غير هدى حتى بلغ المعسكر واذا بالقائد العام قادم ومعهُ اركان حربهِ فلما رأى سسل عائداً قبيل الفجر اتخذ تلك الفرصة لصب جام انتقامهِ على رأس المسكين فامرهُ بالوقوف فوقف وحيّاً . فقال القائد اين كنت ايها الانكليزي في مثل هذه الساعة . قال لم يكن عليَّ واجبات اليوم فذهبت لزيارة بعض الاصدقآء على مقربةٍ من هنا . قال ومن هم اولئك الاصدقآء . قال ليس لك ان تعرفهم . قال بل اعرفهم اذا صفعتك بقفا هذا الغمد . قال ليس لك ان تفعل ذلك ولا اقل منهُ بدون عقد مجلس حربي لمحاكمتي اذا كنت مخطئاً . فبلغ الغيظ من القائد وامتشق حسامهُ وهجم على سسل ولكنهُ قبل ان يرفع يدهُ بهِ وثب سسل اليهِ

ولطمهُ لطمةً اطارت السيف من يدهِ واوقعتهُ على الارض ثم سار سسل بجواده كانهُ لم يحدث شيءٌ . وفي ذلك النهار تألف مجلس عسكري برئاسة القائد العام فحكم على سسل بالاعدام ثم ارسل المجلس الحكم مع رسولٍ خاصّ الى باريز للتوقيع بانفاذهِ وألقي سسل في السجن

وعلمت سيجرت بما حدث فصممت على السعي في خلاص سسل فتوجهت اليهِ واخبرتهُ بقصدها وسألتهُ ان يعطيها اسم أسرتهِ لتستعين بها على انقاذهِ فابى وقال انهُ يفضل الموت على ذلك وان هذا ما يسعى اليهِ منذ قدومهِ الى الجزائر . ولما يئست سيجرت منهُ استأذنت قائدها في التغيب فاذن لها وتوجهت الى حيث يقيم فيليب دي منتاغ وشقيقتهُ جوليا لعلمها انهما من جنس سسل وربما ساعداها على تخليصهِ . ولما اطلعتهما على خبرهِ فهمت جوليا من كلامها ووصف اخيها ان الجندي المذكور هو سسل بعينهِ فقامت قيامتها واجمع الرأي على ان ترسل سيجرت عرضاً في واقعة الحال الى وزير الملكة وتطلب تأجيل الحكم على سسل وان تكتب جوليا واخوها الى سفير انكلترا يسألانه السعي في توقيف انفاذ الحكم ثم بعثوا بكلٍّ من الرسالتين رسولاً مخصوصاً واقاموا ينتظرون ما يكون . وعاد رسول القائد وبيدهِ الامر موقعاً عليهِ فامر باعدام سسل في الصباح التالي وعاد في نفس الليلة رسول سيجرت وبيدهِ امر آخر يلغي الامر الصادر للقائد ويوقف الحكم فما تناولتهُ سيجرت حتى وثبت الى ظهر جوادها وجعلت تنهب الارض نهباً قاصدة المعسكر الفرنسوي فبلغتهُ عند الصباح . ولما اقتربت رأت في الساحة جنوداً مصطفة وفي وسطهم اثنا عشر جندياً

بنادقهم وامامهم سسل موثقاً وهم ينتظرون الامر لاطلاق الرصاص. فلما رأت ذلك اخرجت الامر من ثوبها ورفعتهُ بيدها وجعلت تحث جوادها على المسير وكان قد نهكهُ الكلال ولما بلغت حدود المعسكر وثبت عن ظهرهِ وجعلت تعدو وهي تصيح قفوا قفوا ثم رأت البنادق ترتفع الى صدور الجنود فاشارت لهم بيدها غير ان القائد لم يكترث بها . وكانت قد اخذت من الكنتة جوليا راية انكليزية فرفعتها وبلغت سسل فرمت بنفسها عليهِ وطوقتهُ بذراعها وهي قابضة باليد الواحدة على الامر وبالاخرى على الراية وفي نفس الدقيقة كان قد أعطي الامر فقذفت البنادق رصاصها وسقط سسل وسيجرت الى الارض ...

ولم يصب الرصاص منهما مقتلاً بل اصيبا بجراحٍ كثيرة ونال سيجرت منها الحظ الاوفر وتقدم القائد فاخذ الامر من سيجرت وهو يحرق الأُرَم ثم امر بنقلها الى المستشفى . وجآء بعد ذلك فيليب دي منتاغ برسائل اخرى فطلب سسل وسُمح لهُ بهِ وكرهت سيجرت البقآء في خدمة جيشٍ يحكمهُ رجلٌ ظالوم كالقائد فتركت الخدمة وسارت معهم . ولا يمكن القلم ان يصف مقابلة سسل لزوجتهِ جوليا ومختصر الكلام انهُ عاد بزوجتهِ الى انكلترا وكان والدهُ لا يزال حياً فتجددت ايام هنآئهم ولما رأت سيجرت ان سسل متزوّج احالت كاس حبها الى فيليب فقبلهُ شاكراً واقترن بها وعاش الجميع بعد ذلك بغبطةٍ وسرور يذكرون مرارة الماضي ويتلذذون بحلاوة الحاضر